الشيخ محمد عبده

اشتغاله في مجلس الشورى

وقال سعادة حسن باشا عبد الرازق واصفاً اشتغال الفقيد في مجلس الشورى ما كان فقيدنا رحمة الله عليه من الرجال الذين ينبغون في كل جيل او ينشأون من كل قبيل ولكن من النوابغ الذين يأتي بهم الدهر آحاداً وتتجلى بهم العصور في احقاب متفرقة فينشأون وقد عدّهم الله لجلائل الاعمال وعظائم الامور ومنحهم فطرة تعلو على سائر الفطر وميزهم بسداد الرأي ورجاحة العقل وبعد المرمى وسعة الصدر وقوة القلب فاذا نبت امثال هؤلاء في ارض صالحة ووجدوا في امم مستعدة للرقي طامحة الى ادراك المعالي عرفت اقدارهم ووزنت اعمالهم واهتدت بهديهم فساروا بها في سبل السعادة ورفعوا مقامها على هام السماك لا سيما اذا طال بهم الاجل واتسعت لهم مدة العمر وكان نصيب بلادهم واهلها منهم خير نصيب. هؤلاء الرجال العاملون لخيرانهم يجدون من قومهم في البلاد الحية ما يزيدهم اقداماً وثباتاً وعملاً صدورهم ثقة ورجاء فيعيشون ما يعيشون مؤيدة كلمتهم مكرمة رتبتهم محفوظاً لهم الجميل وبذلك يشتد ساعدهم وتنمو ملكة الاصلاح فيهم وكلما زادهم قومهم قبولاً واقبالاً زادوا رغبة في العمل ولا تجد النشط للعامل من ان يرى لعمله عند امته قبولاً

اما اذا قضى الله لأولئك النابغين ان يكونوا بين أمم فسدت اخلاقها وتمزقت روابطها وبعد ما بينها وبين الحياة القومية وتمكنت منها الغفلة وساد فيها الجهل فانهم يجدون من قومهم حرباً عواناً كلما ارادوا بهم اصلاحاً لانهم يريدون ان يزحزحوا الناس عن ملكات فاسدة رسخت في نفوسهم واطمأنت لها قلوبهم ويعملون لتحويل وجوههم الى الرشاد بعد ان انصرفت الى الغي وأنست به وما اصعب نقل الطباع في الامم من الفساد الى الصلاح وما اشد مدافعة الجاهلين عن اهوائهم وشهواتهم ولكن قد يوجد في تلك الامم الميتة بعض افراد يوفقهم الله لتمييز الصواب من الخطاء ومعرفة النافع من الضار فيقبلون على اولئك المصلحين بوجوههم ويصغون لندائهم فان بد الله لهم في حبل الحياة اثمر غراسهم وتركوا من يخلفهم في اعمالهم اما اذا اسرع اليهم الحمام كان نجاح عملهم بطيئاً

ولا يخفى عليكم ايها السادة حال امتنا المصرية وما لاقى الاستاذ الفقيد رحمة الله منها ابتداء من مناصبتها له ووضعها العقبات في سبيله

(وافاض الخطيب في وصف هذه العقبات وتغلب الفقيد عليها وساق الحديث الى آثاره في مجلس الشورى فقال)

ولكني ارى من الواجب عليَّ ايها السادة ان اذكر لكم مجملاً من مآثر الفراء واعمالهِ الجليلة في مجلس شورى القوانين لانني رافقتهُ فيهِ في اغلب اوقاتهِ وشاركتهُ في معظم اعمالهِ وعرفت من حسن نيتهِ وصدق عزيمتهِ ما لا يعرفهُ كثير من الناس

اختارت الحكومة الاستاذ رحمة الله عليهِ عضوًا في المجلس وتعين بامر عالٍ في ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٩ واول جلسة حضرها كانت في يوم الخميس ٢٩ منهُ وكان اذ ذاك بين اهل الحلّ والعقد في الحكومة وبين رجال الشورى شيء اشبهُ بالخلاف في الرأي ادّى الى ان الحكومة نفّذت كثيرًا من المشروعات التي كان المجلس يرى الخير للامة في عدم العمل بها وصرفت النظر ايضًا عن كل او جل التعديل في المشروعات التي كان يرى ان الصلاح والنفع للامة في تعديلها فلما جاء الاستاذ الى المجلس ونظر في الامر نظرة الحكيم البصير وعرف ان ليس هناك ما يدعو الى هذا الانفراج وانما هو سوء التفاهم باعد ما بين المتاربين على تقاربهما سعى رحمهُ الله في ان يزيل اسباب هذا الخلاف فكان ما اراد وعرفت الحكومة ان المجلس انما يطلب ما فيهِ السعادة للامة ويبتغي الخير لها وان ليس لهُ غرض في مصادمة آراء الحكومة ومطالبها ما دامت تتفق مع مقصدهِ وعلم المجلس ايضًا ان الحكومة لا تقصد الى شيء وراء ما يقصدهُ لمصلحة البلاد وبذلك اتفقت الكلمة في الغالب ولم يعد بين الهيئة الحاكمة والهيئة النيابية من الخلاف ما يتعسر حلهُ

كان الاستاذ رحمة الله عليهِ واسطة العقد في مجلس الشورى فالتفّت حولهُ القلوب وعرف الكل مكانتهُ من قوة الحجة وسداد الرأي وطهارة النية وكان اخوانهُ من رجال الشورى يلجأون اليهِ اذا اشتبه الامر وخفي الصواب فينطق بالحكمة وفصل الخطاب وكان مع هذا اسرع الناس قبولاً الى الحق واوسعهم لهُ صدرًا فاذا ستت اليهِ الحق هشت لهُ نفسهُ وقرّت بهِ عينهُ ولم يصرفهُ عنهُ تمسك بالرأي ولا تعصب لمشرب

وكثيرًا ما كنا نباحثهُ في امر اختلف النظر فيهِ بيننا وبينهُ فيرجع الينا ويوافق رأيهُ رأينا ولم نرَ مثلهُ في احترام الآراء ما دام مصدرها شريفًا لم يشبهُ الغرض

ولقد كنا نختلف معهُ في رأي ويجاهر كل منا برأيهِ ويدعو اليهِ اعتقادًا منهُ انهُ الحق ولا نزال بعد ذلك اخلص الناس سرًّا واصفاهم ودًّا

وكان رحمهُ الله واسع الاطلاع نير البصيرة في كل ضرب من ضروب الاصلاح فاذا عرضت المشروعات القانونية كان بها خبيراً بصيراً واذا قدمت اللوائح الادارية لم يكن اقلّ من اهلها علماً بدقائقها واسرارها واحاطةً بمنافعها ومضارها واذا جاءت المسائل المالية رأيتهُ ماهراً باساليب الحساب عارفاً بفنون الاقتصاد فكنا نجد منهُ في سائر الابواب علماً جمّاً ومعرفة وفهماً ورأياً صائباً وذهناً ثاقباً ولم يزل هكذا يعمل وهكذا يجاهد حتى عجزت قواهُ عن العمل وحال بينهُ وبين مرادهِ الاجل . قضى هذا الفقيد الكريم مدتهُ بيننا وهو كالقطر حيثما وقع نفع وانا لنعلم ان البلاد ثكلت بموتهِ رجلاً لا تعوضهُ الرجال وانثلم بفقدهِ بناء الاسلام ثلمة جانبها ليس بمسدود

اخلاقهُ وفضائلهُ

وقال حضرة القاضي الفاضل قاسم بك امين المستشار في محكمة الاستئناف

اذا أُصيبت امة من الامم الغربية بفقد رجل من رجال العلم او الادب او السياسة كانت تعتمد عليهِ في اصلاح شأن من شؤونها قال قومهُ "ليس في الوجود انسان لا يعوّض" ووجدوا في الحال بين اهل طائفتهِ او صناعتهِ من يسدُّ الفراغ الذي تركهُ ويأخذ مكانهُ

اما الحال عندنا فليس كذلك . مهما قلبنا النظر ودققنا في البحث والتفتيش فلا نجد في امتنا من يعوض علينا ما خسرناهُ بفقد استاذنا الشيخ محمد عبده لا اقول ذلك محاباة لصديق كانت محبتهُ من اسباب الشرف والسعادة لي ولا موافقة للعادة المتبعة في رثاء المتوفين حيث يحسن غض النظر عن عيوبهم ونمحهم صفات وفضائل لم يعترف لهم احد بشيء منها مدة وجودهم بين الاحياء

وانما هذا هو الحق الذي يجب اعلانهُ اعترافاً بالفضل لمصري وصل الى اسمى مقام يمكن ان يناله انسان في هذه الحياة . مقام لم يستمد وجودهُ من منصب عالٍ في الحكومة ولا من رتبة رفيعة ولا من ثروة طائلة ولا من نسبة الى بيت قديم ولا من شيء آخر من القاب الشرف المعروفة التي اخترعت لتحلّ محل شرف النفس . مقام اهتدى اليهِ بشعورهِ واكتسبهُ بجدهِ وعملهِ وحافظ عليهِ بقوة ارادتهِ وحسن سياستهِ وخدم فيهِ بعلمهِ وعقلهِ . مقام مكنهُ من ان يمسك بيدهِ زمام امة باسرها ويحركها نحو الخطة التي رسمها ويسوقها الى المستقبل الذي هيأهُ لها . مقام الامامة باوسع معناها . تركهُ الشيخ محمد عبده ولا يوجد في مصر واحد يجرأ على ان يدعي فيهِ استحقاقاً بعدهُ

لهذا رأينا مدة مرض الامام ويوم وفاته حركة في شعور الامة لم يسبق لها مثيل في تاريخ حياتها

تتذكرون يوم السفر الى الاسكندرية حيث كان المئات من اصدقائه ومعارفه وزملائه وتلاميذه يودعونه في المحطة وجميعهم في سكون وقلق وخوف على حياته . وتتذكرون اقامته في الرمل والزائرون من جميع طبقات الامة ومن جميع جهات القطر يتوافدون عليه افواجاً في كل ساعة من النهار وهم يترددون بين الامل واليأس يسألون عن صحته ويرسلون اخباره الى محبيه الكثيرين الذين كانت تمنعهم اشغالهم عن زيارته وتعلمون الاحتفال الجليل الذي قام به سكان الثغر والعاصمة بعد موته

رأينا كثيراً من العلماء والذوات والامراء مرضوا وماتوا فكانوا موضوعاً للمظاهرات الرسمية ولم نشاهد ان عدداً يذكر من الامة غير اقاربهم واصحابهم اهتم لحادث من تلك الحوادث واظهر شيئاً من شعوره

ذلك لان اولئك العلماء والذوات والامراء انما عاشوا لانفسهم ولكن امتنا قد شعرت في هذه الدفعة بحسن غريزتها انها فقدت رجلاً كان عائشاً لها اكثر من كونه كان عائشاً لنفسه ولعائلته . هذا هو سر الشعور الجديد الذي رأيناه لاول مرة في الامة المصرية شعور الاتحاد في الكدر والحزن لحرمانهم من امامهم المحبوب

فكان هذا الحادث العظيم مبدأ الاتحاد والتضامن بين عدد كبير من الامة المصرية جمعهم احساس واحد . وهذه خطوة في سبيل التقدم الادبي الذي هو في نهاية الامر عبارة عن ترقي الاحساس الى درجة يميل معها الى الجميل وينفر من القبيح في جميع اشكالها ومظاهرها

سادتي ان كل نفس بشرية لها نصيب من الجمال والقبح . والكمال المطلق لا يوجد في هذا العالم ولكن بعض النفوس الممتازة تقرب من الكمال اكثر من غيرها فتنمو زهرة الجمال فيها نمواً عجيباً وتتكاثر فروعها وتمتد طولاً وعرضاً ولا تترك محلاً لسواها فيضعف ويذبل كل نبات خبيث بجانبها

ومن هذا القسم الممتاز كانت نفس امامنا العزيز . نفس خلقت على احسن شكل زينها صاحبها بالفضائل حتى صارت مثالاً في الجمال يجب ان نضعه دائماً امامنا لنتعلم منه مقدار ما يصل الجهد في العمل عند رجل اقترب من سن الستين وكان يطالع ويتعلم ويعلم ويفتي ويجلس في جلسات مجلس شورى القوانين ومجلس الاوقاف الاعلى ويترأس على الجمعية الخيرية الاسلامية ويضع المشروعات للازهر وللمحاكم الشرعية ويمتحن طلبة العلم وتلامذة

المدارس ويؤلف الرسائل الدينية وينشر المقالات الفلسفية ويدافع عن الدين اذا طعن عدو عليهِ ويراسل علماء المسلمين في جميع الاقطار التي يسكنونها ويتخابر مع رجال الحكومة لتنفيذ مقاصدهِ . وكان مع كل ذلك يجد وقتاً ليزور اصحابهُ ويشاركهم في جميع افراحهم واحزانهم

ونتعلم منها ايضاً مبلغ ارتقاء الخلق في انسان اجهد نفسهُ وهذبها ورباها حتى ارسلها الى اقصى ما تصل اليهِ نفس بشرية من الجمال اوالكمال

بلغت فيهِ طيبة النفس الى درجة تكاد تكون غير محدودة . كان يجذبهُ الخير كما يجذب المغناطيس الحديد فيندفع اليهِ ويسعى الى كل نفع للغير عام او خاص . كان ملجأ الفقراء واليتامى والمظلومين والمرفوتين والمصابين باي مصيبة واهل الازهر الذين هم اكثر الناس احتياجاً الى المساعدة لانهم في وسط المدنية الحاضرة المتأخرون العاجزون عن الدفاع عن انفسهم في ميدان حياتنا الجديدة . يبذل اليهم مالهُ ويسعى لهم عند ولاة الامور بهمة لا تعرف الملل كأنما كان يسعى لاعز انسان لديهِ يسعى مرة ومرتين وثلاثاً الى ان يقضي حاجتهم وهم جميعهم في نظرهِ مستحقون سواء كانوا كذلك في الحقيقة ام لا . بل كان يسعى الى صاحب الحاجة وهو يعلم انهُ اساء اليهِ وقدح فيهِ وتحالف مع خصومهِ واشترك في ترويج عبارات القذف والنميمة التي لم تنقطع عنهُ يوماً مدة حياتهِ

لا يصل انسان الى هذا الخلق العظيم الاَّ اذا ربى نفسهُ على ان تتغلب على الغرائز القبيحة الملازمة للطبيعة البشرية وصار حاكماً عليها يحاسبها على كل عمل او نزعة او فكرة او خاطر مما يرد عليها . كان الاستاذ يرى ان الشر لا فائدة منهُ مطلقاً وان التسامح والعفو عن كل شيء وعن كل شخص هما احسن ما يعالج بهِ السوء ويفيد في اصلاح فاعلهِ . كان متفقاً مع فلاسفة العصر على ان الخير لا يتولد الاَّ من الخير والشر لا ينتج الاَّ من الشر

نعم كان للامام الكبير الذي فرض على نفسهِ اصلاح امتهِ خصوم واعداء كثيرون وهم جيش الجهل المركب من عامة الناس الذين لم ينالوا من التربية والعقل ما يؤهلهم لان يدركوا مقاصدهُ ويفهموا مباحثهُ فيقتصروا على التمسك بما وُجد عليهِ آباؤهم من قبل — وعلى جوانب هذا الجيش يحرض على الطعن عليهِ الحاسدون الذين يتألمون اذا ارتفع واحد من الناس عنهم فلا يجدون راحتهم الاَّ اذا انزلوهُ من مكانهِ ووضعوهُ في مستوى واحد معهم — وفي مقدمة هذا الجيش كقواد لهُ ارباب الغايات الذين يسيرون بسفينة مصالحهم من حيث تأتي الرياح . فكان الاستاذ يقاوم ويحارب هذا الجيش الطويل العريض بقوة وعزيمة يحار

العقل فيهما ولكنهُ كان يدافع بقدر الضرورة ولا يتعداها ويحارب حرب الشجاع الكريم الذي لا يطعن من الخلف ولا يخدع ولا يغش . وكان فضلاً عن ذلك لا يكره خصومهُ ولا يبغض اعداءهُ وانما يناقش افكارهم ويطعن على اوهامهم ويهدم معتقداتهم الباطلة ويرجو لهم الهداية ويرشدهم الى الصواب

كان الكثير من اصحابهِ ينصحونهُ ان يجتنب اسباب العناء ويترك ادارة الازهر والدروس التي كان يلقيها فيهِ ومجلس الاوقاف ومجلس الشورى والافتاء ويعود الى مركزهِ في الاستئناف براتب اعظم مما كان يكسبهُ وعمل اخف مما كان يكابدهُ فيعيش كغيرهِ خالياً مستريحاً مطمئناً . ولكنهُ لم يسمع قول نصوح . واقول انهُ كما عرفتهُ كان من المستحيل عليهِ ان يعيش عيشة اخرى

وكان الكثير من الناس يعترضون عليهِ قائلين: ما هذا الشيخ الذي يتكلم باللغة الفرنساوية ويسيح في بلاد الافرنج ويترجم مؤلفاتهم وينقل عن فلاسفتهم ويباحث علماءهم ويفتي بما لم يقل بهِ احد من المتقدمين ويشترك في الجمعيات الخيرية ويجمع المال للفقراء والمنكوبين ان كان من اهل الدين فليقضِ حياتهُ بين الجامع والبيت وان كان من رجال الدنيا فانا نراهُ يعمل فيها وحدهُ اكثر من جميع الناس . كان الاستاذ يسمع ذلك ولا يلتفت الى اقوال المنتقدين حسنت نيتهم اوساءت

كان محركاً بقوة غير عادية ملآنا بالفكر الى حد انهُ ما كان يسعهُ كلهُ فكان يفيض منهُ بالرغم عنهُ . وكان قلبهُ ملتهباً بحب وطنهِ فلا يستريح الاَّ وهو مشغول بهِ وبسعادتهِ ومستقبلهِ وكان مثل جميع النوابغ لا يبالي بالالم الذي يأتيهِ بسبب امنيتهِ التي كان يعزها بل كان يجد الالم فيها لذيذاً كما يلتذ العاشق بما يقاسيهِ من العذاب في هوى من يحبهُ

كم من مرة سمعتهُ يؤكد بانهُ صمم على ان لا يتداخل في شيء من هذا القبيل ثم رأيتهُ في الغد منغمساً فيهِ اكثر مما كان بالامس

ذلك لانهُ كان بعكس ما يراهُ عموم المصريين في نفسهم عندهُ امل لا يزعزعهُ شيء في اصلاح امتهِ . واعتقاد متين ان البذرة الطيبة متى القيت في ارض بلادنا الخصبة نبتت وازهرت واثمرت كما نبتت وازهرت واثمرت بذور الفساد فيها

لهذا كان يلقي بملء يديهِ كل ما جمعهُ في حياتهِ من الافكار الصالحة والعواطف الشريفة والتعاليم المفيدة — كأنهُ كان يشعر ان حياتهُ ليست طويلة وكان يعجل يذل جميع ما كان عندهُ وهل كان مخطئاً في آمالهِ ؟ كلاَّ . وانما يخطئ من يقنط ويأس من مستقبل امتهِ

ان لم تسمح القدرة لامام مصر باتمام مقاصده جميعها فلا ينكر احد ان تعاليمهُ قد أثرت في عموم الامة وفي اهل الازهر على الخصوص تأثيراً حسناً

ولكن ينبغي ان لا يغيب عن فكرنا ان الامم التي تستفيد من الاصلاح هي التي تستحقهُ اي تدركهُ وتفهمهُ وتحبهُ وتطالب بهِ وتكرم رجالهُ وتحترمهم وتعزهم والاَّ فكل اصلاح فيها مصيرهُ الى الزوال السريع

يجب علينا ان نضع يدنا على بناء الاصلاح الذي وضع الامام اساسهُ ونحافظ عليهِ وندافع عنهُ ونضيف اليهِ ان امكننا حتى نتركهُ الى ذريتنا كميراث نفيس تنتفع منهُ وتزيد عليهِ ثم تتركهُ الى من يأتي بعدها وهكذا ينمو الاصلاح فينا كلما مرت الايام والاجيال كما هو الحال عند الامم الحية . سادتي نحن اليوم في عصر توفرت فيهِ ظروف عديدة تساعد على ارتقاء بلادنا اذا نحن عرفنا ان نستخدمها . نحن في عصر النظام والحرية التامة التي لا نقف الاَّ عند حد القانون وارى المفسدين منا تجارتهم رابحة يتكلمون بصوت عالٍ وينشرون ما يوافق مصالحهم ويختلسون ثقة الجمهور ورضاء ولاة الامور . اراهم بالاجمال ينتفعون من الحرية التي مُنحها المصريون وارى بعكس ذلك ان الطيبين منا الصادقين الذين يريدون الخير لبلادهم لا يستعملون حريتهم ولا ينتفعون منها بشيء يتكلمون بصوت منخفض او لا يتكلمون ولا ينشرون اميالهم وآراءهم ويتعدون عن ولاة امورهم ويترفعون عن المناقشة والجدال ولا يميلون الى الجهاد في سبيل الحق والعدل والمنفعة العامة فكان ضعف هؤلاء وجراءة اولئك من اهم العوائق التي صادفها الامام في طريق الاصلاح

اذا دام هذا الحال كان نصيب ما شيدهُ من البناء الخراب والسقوط

اما اذا عدل محبو الاصلاح منا عن خطتهم وجاهروا بافكارهم ودافعوا عن آرائهم وتركوا ما اعتادوهُ من الافراط في الحرص على راحتهم والمسالمة الزائدة عن حد المعقول وساروا في الطريق الذي رسمهُ لهم امامهم ملهمين بروحهِ مهتدين بنورهِ مقتدين بسيرتهِ متحببين بما اظهرهُ في حياتهِ من علو النفس وشهامة الخلق وشجاعة الرأي وثبات العزيمة فلا ريب ان البناء يكمل والاصلاح يتم ويحقق ما كان استاذنا وامامنا العزيز يريدهُ وما يتمناهُ كل مصري من الشرف والمجد والسعادة لامتهِ